مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

"التّعليل الانطباعي في الدرس الصّرفي عند العيني"

د. حسين إرشيد الأسود العظامات*

(تاريخ الإيداع 2 / 10 / 2017. قبل للنشر في 29 / 10 / 2017)

□ ملخّص □

قصدت هذه الدراسة إلى بيان فلسفة التعليل المتكئ على الانطباع في التفكير اللغوي، وبحث كيف يكون الانطباع والذوق وسيلة من وسائل التعليل في عند اللغويين، فليس كل ما في اللغة رهين الأدلة اللغوية المتداولة في أصول النحو سماعاً وقياساً، بل ثمّة حيز للانطباعات الذوقية، ومساحة للآراء الشخصية والانطباعات الذاتية ولو لم تخضع هذه المساحة لبراهين العلم الموضوعية، وقد اتخذت الدراسة من بدر الدين العيني (762-855هـ = 1361– 1451م) نموذجاً لبيان هذه الفكرة من خلال كتابه "شرح المراح في التصريف".

فسعت هذه الدراسة إلى تناول تعليل من نوع خاص سميناه "التعليل الانطباعي"، وهو جملة الانطباعات التي اتخذها اللغوي وسيلة تعليل في الاستدلال على مسألة لغوية تتقاطع مع ما تفضي إليه العلل والأدلة اللغوية ، بوصفه تعليلاً مسانداً أو رديفاً لها.

و"التعليل الانطباعي" هو من لدن وحدة الشخصية الإنسانية، إذ لا يمكن أن يتجرد الإنسان من ذوقه وانطباعاته في بحث مسألة من مسائل العلم، وإذا كان علم الصرف من العلوم القائمة على المنطق المجرد والقواعد الموضوعية المحكومة بأقيسة وموازيين، فإنَّ التعليل فيه لا يخلو من بث اللغوي بعض انطباعاته الذوقية في معالجة المسألة الصرفية. وهو ما نحاول تسويته وبيانه.

* أستاذ مشارك، كلية الآداب، جامعة آل البيت، الأردن .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (5)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (5) 2017

AlAayni's subjective explanation of the morphological representation

Dr. Huseen ALazamat*

(Received 2 / 10 / 2017. Accepted 29 / 10 / 2017)

□ ABSTRACT □

This study aims at investigating the explanatory notions based upon the subjective mechanism found in the linguistic presentation. Moreover, this study shows how intuition and subjectivity can be a means for explanatory levels ; it is possible that in addition to a variety of linguistic evidence based arguments there are the so-called intuitive and analogy based mechanisms used to make proper judgments on certain linguistic forms. The data for this study is taken from Alayni's work Almarah's Morphological explanation (1361-1451).

Accordingly, we provide some accounts on the notion "Subjective explanation" which indicates that it is not only that some linguistic evidence is necessary for the linguistic explanation but it is also that some subjective explanatory mechanisms are indispensible. This observation is attributed to the highly intuitive language faculty that native speakers have in order to make proper judgments on some linguistic forms. At the morphological level, we will apply this notion of "Subjective explanation" in order to find out how to account for the language behavior at the morphological level.

* **Associate Professor, Faculty of Arts and Humanities, University AL Beet, Jordan.**

مقدمة:

عنى اللغويون والنحاة خاصة بظاهرة التعليل، وشغل الحديث عن العلّة اهتمام علماء اللغة حتى عقدوا مصنفات خاصة أفردوا فيها الحديث عن العلة، كما ألفوا في علل القراءات وعلل الأحاديث [1].. وازدادت عنايتهم بالعلّة بأثر توظيف المنطق والفلسفة في بحوثهم اللغوية ومصنفاتهم النحوية. والمتأمل في ظاهرة التعليل في الدرس اللغوي، يلحظ أنَّ جلَّ عنايتهم كانت في الحديث عن العلة النحوية تحديداً، إذ نقع على مصنفات حملت عنوان "علل النحو" مثل: علل النحو لأبي عثمان بكر بن حبيب المازني، و"علل النحو" لمحمد بن أحمد بن كيسان، و"علل النحو" لمحمد بن المستنير قطرب، و"علل النحو" للغذّة الأصبهاني أبو علي الحسين بن عبد الله الأصبهاني وغيرها...[2]

وربما كان ذلك من قِبَل أنَّ النحو يشمل المسائل النحوية والصرفية، أي ما يعرف بالقواعد. ولعل المنهج المعياري الذي وسم الدراسات اللغوية لا سيما في المدرسة البصرية كان أحد مقومات العناية بالعلّة والتعليل.

وربما كان الخليل من أوائل من يحدثنا عن العلل في اللغة. قد "سئل (الخليل) عن العلل التي يعتل بها في النحو." فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إنَّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، فقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها. واعتللت أنا بما عندي أنّه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال :إنّما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ... محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أنَّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول، فليأت بها."[3]

والتعليل ظاهرة إثبات ودليل رجحان، فهي بحدّ ذاتها بيّنة على ما يُدعى إليه، لا سيما إذا اعتور المسألة خلافات وتعدد وجهات نظر، وتباين في الآراء، ساعتئذ لا بدّ من العلة التي تعد دليلا على صحة الرأي ودقته. ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ نحونا العربي قائم على العّلة، فنظرية العامل التي هي أساس علم النحو في العربية إنما هي في حقيقة الأمر علّة يعلل بها بنية التركيب اللغوي في العربية، وهي ما دعا ابن مضاء القرطبي إلى الاكتفاء بها وسمّاها العلة الأولى؛ لمّا بلغ بهم الشأو إلى تعدي هذه العلة إلى العلل الثواني والثوالث.[4]

وبصرف النظر عن حمّى الجدل في العلل الأوّل أو الثواني أو الثوالث...فإنَّ دعوة ابن مضاء في ردّه على النحاة ما هي إلا دليل على عنايتهم بالتعليل، الذي بدأ من باكورة الدّرس اللغوي وأشار إليه الخليل...[5]

التعليل الانطباعي (العلة الانطباعية):

قبل الولوج في تعريف التعليل الانطباعي، يجدر بنا التعرف على مفهوم العلة نفسها، وقد أفاض الفلاسفة في تعريفها وتقسيمها، وبيان أنواعها إلى غير ذلك مما ليس هذا مكانه، بيد أنه يمكن الإفادة من تعريفاتهم للوصول إلى ما يهمّنا في موضوع دراستنا هذه. يقول الشريف الجرجاني[6]:

"العلة هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه. وعلة الشيء ما يتوقف عليه ذلك الشيء، وهي قسمان: ...علة الماهية... وعلة الوجود..." ثم قسّم العلة إلى أقسام مختلفة كالعلة الصورية إذا كان الشيء موجوداً بالفعل، والعلة المادية عن كان الشيء موجوداً بالقوة، والعلة الفاعلية ما يوجد الشيء بسببه والعلة الغائية ما يوجد الشيء لأجله..."

ويبدو أنَّ اختلاف توجهات العلماء من فلاسفة ومتكلمين وأصوليين ومناطقة وفقهاء... أدى إلى اختلاف مفهوم العلة عند كل فريق، وربما كان الكفوي أكثر تفصيلا ونسبة لتلك المفاهيم. يقول الكفوي[7]:

"العلة لغة عبارة عن معنى يحل بالمحلّ فيتغير به حال المحل، ومنه سمي المرض علّة. وهي ما يتوقف عليه الشيء. وفي التلويح ما يثبت به الشيء، وعند الأصولي ما يجب به الحكم. ...وقد يراد بالعلّة المؤثر، وفي السبب ما يفضي إلى الشيء بالجملة، أو ما يكون باعثاً عليه...وقال بعضهم السبب ما يتوصل به إلى الحكم من غير أن يثبت به، والعلة ما يثبت الحكم بها، وكذا الدليل فإنه طريق لمعرفة المدلول بسببه تحصل المعرفة...غير أن العلة تسمى سببا وتسمى دليلاً مجازاً.

إنَّ الذي توجه إليه الاعتبار في هذ الدراسة هو العلة في اللغة، أو التعليل اللغوي، انطلاقاً من أن التعليل الانطباعي مقصود عند بدر الدين العيني في الدرس الصرفي تحديداً، وعليه، فإنَّ قول الكفوي السابق: "ما يثبت به الشيء أو ما يجب به الحكم" هو أقرب المفاهيم للعلة عن اللغويين والنحاة. فالنحو "علم بعضه مسموع مأخوذ من العرب، وبعضه مستنبط بالفكر والرَّويَّة وهو التعليلات..."[8]

وإذا كان النحو كما يقول ابن الأنباري "كله قياس"[9]، ولا قياس من غير علّة، لأن العلة الجامعة ركن من أركان القياس، لذلك كان النحو قائماً على العلة.

وقد أورد السيوطي دفاع العلماء عن علل النحويين يقول[10]:

"وأما ما ذهب إليه غفلة من العوام من أنَّ علل النحو تكون واهية ومتمحّلة، ...فبمعزل عن الحق، وذلك أنَّ الأوضاع والصيغ وإن كنّا نحن نستعملها، فليس ذلك على سبيل الابتداء والابتداع، بل على وجه الاقتداء والاتباع...فنحن إذا صادفنا الصيغ المستعملة والأوضاع بحال من الأحوال، ...تطلبنا بها وجه الحكمة المخصصة لتلك الحال.."

وليس من نافلة القول أنَّ التعليل الانطباعي ليس مقصوراً على الدرس اللغوي، بل يمكن أن يرد الانطباع في أي مبحث أو مسالة من مباحث العلم ومسائله، فذوق الإنسان وانطباعاته تلازمانه حيثما كان، وما كان تناولنا إياها في هذه الدراسة إلا عن توظيف لها في الدرس الصرفي عند بدر الدين العيني.

إنَّ اللغويّ قد يلجأ أحياناً إلى بث انطباعاته الذوقية في سياق تعليله لظاهرة نحوية أو صرفية. فيكشف عن جملة مشاعره وهو يعالج مسألة اللغوية وكأنّ الذوق جزء من الحكم فيها.

ولسنا ندعي أنّ الحكم في التعليل الصرفي أو النحوي قائم على ما يستشرفه اللغوي من ذوقه وانطباعاته فحسب، بل يرد ما اقترحنا تسميته بالتعليل الانطباعي بعد سوق الحجج والبراهين والشواهد، والاستئناس بالردّ على ما تتيحه اللغة من تراكيب وسياقات. إذ لا يُكتفى بالتعليل الانطباعي وحده، ولكنه يرد رديفاً، وهو بذلك يمكن وصفه بالتعليل الثانوي.

وهذا التعليل من وجهة نظر الباحث هو من رحم الإيمان بوحدة الشخصية الإنسانية، إذ لا يمكن أن يتجرد الإنسان من مشاعره وذوقه وانطباعاته وأخيلته ومشاعره مهما حاول التجرد منها، ومهما كانت المسألة التي يعالجها أو يبحثها. فإذا كان علم الصرف من العلوم القائمة على المنطق المجرد والقواعد الموضوعية المحكومة بأقيسة وموازيين، فإنَّ التعليل فيه لا يخلو من بث اللغوي بعض انطباعاته الذوقية في معالجة المسألة الصرفية، وهذا ما سوف نحلول البحث فيه والكشف عنه متخذين من بدر الدين العيني في ضوء كتابه "شرح المراح في التصريف" نموذجاً لإثبات هذه الفكرة.

وعليه، فإنَّ القصد من هذه الدراسة، بيان فلسفة التعليل المتكئ على الانطباع في التفكير اللغوي، وبحث كيف يكون الانطباع الشخصي وسيلة من وسائل التعليل في الفكر اللغوي، فليس كل ما في اللغة رهين الأدلة اللغوية المتداولة في أصول النحو، بل ثمّة حيز للانطباعات الذهنية، ومساحة للآراء الشخصية والمشاعر الذاتية ولو لم تخضع هذه المساحة لبراهين العلم الموضوعية.

وبناء على ذلك، فإنَّ التعليل الذي أورده بعض اللغويين في مصنفاتهم لا سيما القدماء منهم، وعللوا به مسائل لغوية، كان من ركائزه الاعتماد على انطباعاتهم، وما ينبري للغوي من انطباعت نفسية يعلل في ضوئها ظاهرة لغوية، ولذلك اقترحنا تسميتها بالتعليل الانطباعي أو العلّة الانطباعية، وقد يسال سائل: لمَ لم تُسمَّ بالعلة الطبعية؟

الفرق بين الطبع والانطباع فرق من وجهة نظرنا فرق بين العام والخاص أو المطلق والمقيّد، فالطبع عام يشترك فيه أبناء اللغة أو البيئة اللغوية الواحدة، أما الانطباع فخاص يمتاز به الفرد من بين أفراد البيئة اللغوية الواحدة، ولمّا كانت هذه العلة من العلل التي لم تكن محط إجماع بين الدارسين والباحثين من اللغويين، بل تفرّد بها بعضهم، ولا يعني قولنا بعضهم أنها غير خاصة، فهذا البعض وإن اعتمد على انطباعه إلا أنَّ تلك الانطباعات متفاوتة لا متفق عليها، فلكل انطباعاته الخاصة، كما أنَّ الطبع سمت دائم يميز الإنسان، أما الانطباع فعارض غير لازم، وقد يتفاوت من حين لآخر ولو كان المرء في الظرف نفسه. ولذلك آثرنا أن نبرز هذه العلة من خلال حصرها عند شخصية لغوية هي بدر الدين العيني؛ لما لاحظناه من حضور هذه العلة والاعتماد عليها في كتابه:" شرح المراح في التصريف".

فما هي العلّة الانطباعية؟ وهل يصح في المنهج العلمي الاعتماد عليها؟ وما هي السياقات اللغوية التي تجلّت فيها هذه العلة عند العيني في كتابه شرح المراح؟ وكيف تبدو هذه العلّة في ضوء الحقيقة العلمية المعاصرة؟ وما هي سياقات ورودها عند العيني في الدرس الصرفي؟ وهل كان لهذه العلة رتبة بين العلل؟ وهل ذكرها حجة أم استئناساً؟

تحاول هذه الدراسة أن تقف على إجابات هذه التساؤلات من خلال كتاب شرح المراح بوصفه عينة لهذه العلة.

ومما يجدر ذكره من الوجهة الاصطلاحية أنّ الباحث يميل إلى وصف الظاهرة بالتعليل الانطباعي أكثر من العلة الانطباعية، وذلك لأنَّ مصطلح العلة الانطباعية يشي باستقرار هذا المصطلح في الدرس اللغوي، واتفاق اللغويين عليه، وهذا ما لم يتحقق بعد، فالظاهرة من حيث وجودها متحققة، ولكنها من حيث استقرارها اصطلاحيا غير متحققة،

ولذا فإنّ الأنسب في وصفها أن توسم بالتعليل الانطباعي لا العلة الانطباعية. وإذا قيل لم استخدم مصطلح العلة الانطباعية، فإنّ بيان ذلك هو أننا ندفع باتجاه تأصيل هذا المصطلح والبلوغ به مبلغ الاستقرار، ومعلوم أن ترداد المصطلحات في الدراسات اللغوية، وسيلة من وسائل تثبيتها.

مظاهر التعليل الانطباعي عند بدر الدين العيني:

قبل عرض مظاهر التعليل الانطباعي وسياقاته التركيبية، يجدر القول إنَّ التعليل الانطباعي في الدرّس اللغوي لا ينشأ من فراغ، وليس وليد اعتباط، وإنما هو ذو مرجعية ويبني عليها أساسه، فقد يعتمد التعليل الانطباعي على ركيزة من ركائز الفكر الديني، أو أساس من أسس التفكير المنطقي ويبني عليها، وبصرف النظر عن صحة هذا البناء، فإنَّ العلاقة بين العلة والمعلل لا تنشأ من فراغ، بل يؤسس لها من مرجعية موثوقة ثم يفترض البناء عليها. وعليه فإنَّ المرجعية التي يؤسس التعليل الانطباعي عليها لا يعتورها شك أو بطلان، فهي غالباً حقيقة ثابتة، وهذا ما يجعل التعليل الانطباعي في أغلبه موثوقاً به وذا مصداقية عالية.

وبناء على ما سبق فإنّ التعليل الانطباعي ليس من المآخذ التي تسجّل على العالم، فقد سبق القول إنَّ هذا التعليل يأتي ثانوياً لا رئيساً، وهو من باب تعزيز الفكرة والحكم، فهو رديف الحجة والدليل، بل هو من الأهمية بمكان يكشف ما يختلج في النفس من انطباعات تتقاطع مع الأدلة العلمية والشواهد اللغوية.

وعليه فإننا نرى أنَّ التعليل الانطباعي جزء من النظرة التكاملية في فهم الآراء العلمية، وهذا مردّه إلى النظرة الاجتماعية والسياق الاجتماعي للغة، سواء أكانت لغة خطاب تداولي أو لغة نص علمي، لأنَّ كليهما لا ينفك يحقق مفهوم التواصل الذي من أجله كانت اللغة.

أما السياقات اللغوية التي لجأ فيها العيني إلى التعليل الانطباعي سواء أكان مبتدعاً لهذا التعليل أو مختاراً له، إذ اختيار المرء جزء من فكره وذوقه، فقد رصد الباحث جملة من السياقات اللغوية كان التعليل الانطباعي وسيلة من وسائل الإبداع أو الاختيار عند العيني. وتبدو تعليلاته الانطباعية في السياقات الآتية:

أولاً، التعليل الانطباعي في المصطلحات التصريفية :

أ- التعليل الانطباعي في تسمية التصريف أمّ العلوم والنحو أبوها

يقول العيني:[11]:

"لم سمي علم التصريف أم العلوم وعلم النحو أبوها؟ قيل له: كما أنَّ الأم تتولد منها الأولاد فكذلك التصريف تتولد منه الألفاظ، وكما أن الأب سبب لإصلاح الفراش فكذلك النحو سبب لإصلاح اللفظ، وكما أن الأب يمنع أولاده من الوقوع في الفساد، فكذلك النحو يمنع المتكلم من الوقوع في الفساد أعني: الخطأ في الإعراب."

ولا يخفى في هذا التعليل الاعتماد على الذائقة والانطباعات التي علل بها العيني سبب تسمية التصريف بأم العلوم، والنحو بأبيها. كما لا يخفى أثر القيم الاجتماعية والسياق الاجتماعي في توجيه التعليل، فالتوالد من الأمومة، وبالتصريف تتوالد الألفاظ، فحقّ لذلك تسمية التصريف بأم العلوم، والإصلاح أبوي، والنحو يصلح الكلام ويقوّم اعوجاجه وفساده، ولذلك سمّي النحو بأبي العلوم.

وغني عن القول أنَّ ما نلحظه من توظيف للانطباعات والذائقة الاجتماعية يدخل في باب التشبيهات والمجاز، وهو من جهة يقرّب الفكرة للمتعلمين، لإبراز قيمة علمي التصريف والنحو، ومن جهة أخرى يعرّف بالعلمين ووظيفتهما في اللغة. ومن وجهة ثالثة يكشف العلاقة بين علمي النحو والتصريف أو ما يعرف بالقواعد، وهما من الصلة ما لا

يصح فيه الفصل بينهما، أو هما من العلاقة كما قيل: كالبناء ومادة البناء. فإذا كان النحو أباً والتصريف أماً كانت الأسرة، والأسرة هنا وحدة وأساس من أسس المجتمع. وكذا النحو والتصريف في الدرس اللغوي.

ب- التعليل الانطباعي في تسمية اختلاف حركة عين المضارع عن الماضي بدعائم الأبواب.

يقول العيني في شرح قول صاحب مراح الأرواح[12]:

"قوله: (وتُسمّى الثلاثةُ الأولُ: دعائمُ الأبواب لاختلاف حركاتهنّ في الماضي والمستقبل وكثرتهنّ، وفَتَحَ يَفْتَحُ لا يدخل في الدعائمِ، لانعدام اختلاف الحركاتِ، ولانعدام مجيئهِ بغير حرف الحَلْقِ)." أقول: الثلاثة الأولى هي: ضَرَبَ يَضْرِبُ، وقَتَل يَقْتُلُ، وعَلِمَ يعلَمُ وإنما سُميّت هذه الأمثلة الثلاثة دعائمُ الأبواب، لاختلافِ حركاتهن في الماضي والمستقبل، والاختلافُ يدلّ على القوة، والقوةُ تدل على الأصالةِ."

يبدو أن شغف العيني بتفسير مفهوم المصطلح "دعائم" هو الباعث للتعليل الانطباعي لهذا المصطلح، يقول[13]: " الدعائم: جمع دِعامة وهي عَمُود البيت، وقيل دِعامةُ الشيء أصلُه.."

والدعم: "القوة والمال...والدّعامة عماد البيت الذي يقوم عليه، وقد ادعمت إذا اتكات عليها.."[14]

ففي تسمية الفعل الذي تغاير حركة مضارعه حركةَ ماضيه بـ"دعائم الأبواب" قيمة انطباعية مردّها إلى الاختلاف، إذ الاختلاف وفق تعليل العيني قوة، وهذا انطباع منطقي، فالمتغير كالمتصرف والمتصرف أقوى من الجامد، ولذلك قالوا متمكن أمكن في متغير التنوين، ومتمكن غير أمكن في الممنوع من الصرف (غير المنون)، وغير المتمكن فيما لا يدخله أنواع التنوين، والتمكين قوّة، وهو قائم على دخول أنواع التنوين المختلفة.

فالاختلاف دليل قدرة على التمكن والتصرف، ولذلك عُدَّ من القوة، ولو كان ضعيفا لما كان قادراً على إحداث تغير أو تصرف.

ثمَّ أضاف العيني قيمة الكثرة بوصفها إحدى معايير القوّة، يقول: " وقوله "وكثرتهن" أي وكثرة استعمالهن." وبذلك اجتمع له الاختلاف والكثرة ليفضيا في تعليله الانطباعي القائم على أبعاد منطقية إلى مفهوم القوّة.

إنَّ نقل هذا الفهم إلى اللغة يجمع بين المنطق والانطباع ، ولذلك يمكن اقتراح "الانطباع المنطقي" في تسمية بعض تعليلات العيني الانطباعية سواء في المسائل الاصطلاحية أو القضايا التصريفية.

وعليه يبدو كلام العيني في قوله "الاختلاف يدل على القوة" تعليلاً انطباعياً ذا أبعاد منطقية، ولا يمنع التقاء الانطباع من حيث هو ميول وذوق مع المنطق من حيث هو "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر"[15]

ثم بنى العيني على مفهوم القلّة مفهوم الأصالة، فكان تسلسله في تحليلة وتعليله الانطباعي قائماً على بناء من ثلاث مراحل هي:

(اختلاف+ كثرة) ⟵ قوة ⟵ أصالة

ولذلك جعل "فَتَحَ يفتَحُ لا يدخلُ في دعائمِ الأبواب لانعدامِ اختلاف الحركات، لأنها في الماضي والمستقبل تجيء على سنَن واحدٍ ولانعدام مجيئهِ بغير حرفِ الحلقِ.."

ثانياً، التعليل الانطباعي في المسائل (السياقات) التصريفية:

أ- التعليل الانطباعي في اختيار "فعل" بناء للوزن:

يقول العيني في شرح[16]:

"واختص الفاءُ والعينُ واللامُ للوزنِ حتى يكون فيه من حروف الشّفةِ والوسطِ والحَلقْ شيء".

أقول: هذه إشارة إلى علّة اختصاص كلمة "فعل" للوزن وذلك إنما اختص للزّنة لأنه لا يوجد فيه من حروف الشفة والحلْقِ لأن الفاء من الشفة، والعين من الحلْق، واللام من الوسط ومخارج الحروف لا تنفك عن هذه الثلاثة لما يجيء بيانه إن شاء الله تعالى. فإن قيل: لم لا يوضع غير هذا مثل عَلِمَ وصنع والمقصود يحصل منهما أيضاً؟ قيل له: أجل لكن "فَعَلَ" أعمّ الأفعال معنى لأنه الفعل علاجياً أو غير علاجي، تقول: فَعَلَ الضرب والشتم وفَعَل النصر فلذلك استعمل في مكان الأداء والإعطاء في قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ (المؤمنون:4) أي مؤدون، فكان أعمّ الأفعال معنى."

لجأ العيني في هذا النّص إلى توظيف التعليل الانطباعي مرتين:

إحداهما، في تعليله لاختيار "فَعَلَ" للميزان الصرفي، فوزن ضَرَبَ: فَعَلَ، ووزن عَلِمَ: فَعِلَ، ووزن حَسُنَ: فَعُلَ...وكذلك نجد الفاء والعين واللام فيما تصرف من هذه الأفعال وما أشتق منها... وكذلك في الأسماء.

ويرى العيني أن سبب اختيارهم للفاء لتمثيل الحرف الأول الأصل من الكلمة، والعين للثاني، واللام للثالث، هو أنهم أرادوا الإحاطة بمخارج الأصوات في العربية، فاختاروا الفاء للإشارة إلى الأصوات الأمامية في العربية كالأصوات الشفوية والأسنانية بين الأسنانية واللثوية...واختاروا العين للإشارة إلى الأصوات الخلفية كالحنجرية والحلقية والطبقية واللهوية، واختاروا اللام للإشارة إلى الأصوات الوسطية في القناة النطقية كالأصوات الغارية والضاد القديمة..

ويتضح الانطباع في التعليل من وجهة ضرورة توزيع الأصوات في القناة النطقية لتمثيلها مخارج الأصوات في العربية(الأمامية والوسطية والخلفية) ، والكلام العربي يتألف من هذه الأصوات، فكان "فعل" تمثل مجموع الكلام في اللغة. والتعليل الانطباعي في هذه العلة هو من وجهة الانطباع الصوتي الذي يدرك مخارج الأصوات ونظامها التوزيعي، ومن ثم توزيع الأصوات عليها.

والأخرى، يبدو فيها تعليله الانطباعي من الوجهة الدلالية، فكل حدث يقوم به محدثه أو من أسند إليه، هو في دلالته "فِعْل"، فالفعل حدث فعلته في زمن سواء أكان مادياً إجرائياً كالضرب، أو غير مادي كالنصر. وهذا يناسب اختيار "فعلَ" لتمثل أي حدث أو فعلٍ، للقيمة الدلالية فيها، بوصفها تعبيراً صالحاً لكل ما يحدث في زمن.

ويكمل العيني بيان تعليلاته الانطباعية في اختيار الفاء والعين واللام بماء للوزن في العربية بقوله: [17]:

"واللاّمُ أيضاً لها أربعةُ أحوال. وقد سقط منها الضم والكسر للاشتغال لما فيه من الكلفة بخلاف الفتحة لأنها أخفّ الحركات. والطّباعُ تميل إليها. وقد سقط منها السكون أيضاً لأن الماضي مبنيّ، وبناؤه على الفتح لأنه أخُ السكون. لأن الفتح جزءُ الألف، ..."

يقدم العيني في قوله هذا علاً لغوية آزرتها علل انطباعية، فقد ذكر أحوال اللام في "فعل" بوصفها بناء للأوزان، فلا يعتورها ضم ولا كسر، إذ هي في الأصل بناء الماضي، وعلل سقوط الضم والكسر لما فيهما من كلفة، وهذا تعليل علمي دقيق، إذ الكلفة النطقية المبذولة في الكسر والضم أكثر منها في الفتح، فالفتح أخف الحركات لقلة الجهد العضلي المبذول في نطقه إذا قيس مع الضم والكسر. وهذا التعليل العلمي ردفه بقوله واصفاً الفتحة: "والطباع تميل إليها"، ليجعل من الذوق والميل العام تعليلاً مؤازراً حكمه اللغوي.

كما يبدو تعليله الانطباعي في حديثه عن علاقة الفتح بالسكون، إذ جعل بينهما مؤاخاة، وهي مؤاخاة في الخفّة، وربما كانت هذه المؤاخاة متكلّفة، إلا أن الانطباع قاده إليها، وحاول بيان وجه القربى في حقيقة هذه المؤاخاة، فجعل الفتح بعض الألف، وهو بذلك يصيب وجه الحقيقة العلمية في العلاقة بين الفتحتين الطويلة والقصيرة، والألف بظنه وظن علماء العربية المتقدمين حرف ساكن، ومن هنا كان الفتح أخاً للسكون في الخفّة. ويعضد هذا الذي ذهبنا إليه قوله[18]:

" الفتحة أخ السكون، لأن الفتحة جزء الألف، لأنها بالإتباع تصير ألفا، والألف ساكن دائماً أو لأن الفعل ثقيل، فاختيرت الفتحةُ من بين الحركات لخفتها، فهو مفتوح أبداً، إلا أن يعرض ما يوجب سكونه أو ضمه..."

ب–التعليل الانطباعي في زيادة اللواحق "ضمائر التثنية والجمع" (الألف والواو والنون) في آخر الماضي:

يقول العيني[19]:

"هذا شروعٌ في بيان علة زيادة الألف والواو والنون في آخر الماضي، وذلك إنما زيدتْ الألفُ في التثنية نحو: ضَرَبا حتى تدل على هُما، وزيدت الواو في الجمع نحو: ضرَبُوا حتى تدلَّ على همُوا، وزيدت النونٌ في الجمع المؤنث نحو: ضَرَبْنَ، حتى تدلّ على هُنّ لأن هُنّ مستكنةٌ تحتهنّ.

وقيل إنما زيدت النون في ضَرَبْنَ، للفرق بينه وبين الجمع المذكر ولم يعكس الأمر لأن النون من المخرج الثاني، والمؤنث أيضاً ثان في التخليق، ... وإنما اختصّ الجمعُ بالواو لأن الألف أسبق على الواو، والتثنية أسبق على الجمع، فأعطىَ الأسبقُ، فاختصّت بالألف كما أن الجمع اختصّ بالواو، وإنما لم يعكس الأمر لأن الجمع، أعني جمع المذكر، أشرف الجموع والواو أيضاً أشرف الحروف، فأعطىَ الأشرفُ الأشرفَ."

لا تعليل انطباعي في إحالة العيني الضمائر إلى مدلولاتها فألف الاثنين لـ"هما"، وواو الجماعة لـ"هموا"ن ونون النسوة لـ"هنَّ". ولكن العيني في سياق تعليله لاختيار النون لجماعة النسوة، اتكأ في تحليله على انطباعاته، فقد رأى أنّ النون تخرج من المخرج الثاني يقصد المخرج الأنفي، إذ الأصوات تخرج إما من المخرج الفموي وإما من المخرج الأنفي، وكل الأصوات في العربية من المخرج الفموي إلا صوتي النون والميم، فالأصل الفموي لكثرة أصواته، وبناء على ذلك اختيرت النون للمؤنث لأن المؤنث ثان في الخلق، كما يرى العيني، إذ خلق الله تعال آدم ثم خلق حواء.

وليس من نافلة القول أنّ تعليل العيني الانطباعي في اختيار النون للمؤنث، مردّه إلى الفكر الديني، إذ خلق الله تعالى آدم وعلّمه الأسماء كلها ثم سجدت له الملائكة وأسكنه الله الجنّة ثم خلق له زوجه...وانطلاقاً من هذا الفكر الديني اجتهد العيني في تعليله لاختيار نون النسوة. وهذا يؤكد الفكرة التي قيلت سابقاً وهي أن التعليل الانطباعي في الدرّس اللغوي لا يقوم من فراغ، وليس انطباعاً اعتباطياً، وإنما هو ذو مرجعية يستمد منها قوامه، ويبني عليها أساسه، فالعيني ههنا لم يبتدع انطباعاته اعتباطاً وعشوائية وإنما اعتمد على ركيزة من ركائز الفكر الديني، وبنى عليها تعليله،

وبصرف النظر عن صحة هذا البناء، والعلاقة بين النون كصوت من المخرج الثاني والنساء كخلق ثان، فإنّ التعليل الانطباعي لا ينشأ من فراغ، بل يؤسس لمرجعية ثم يفترض البناء عليها. كأن تكون مرجعية منطقية أو دينية أو غيرها.

وليس من نافلة القول أن المرجعية التي يؤسس التعليل الانطباعي عليها لا يعتورها شك أو بطلان، فهي حقيقة ثابتة، وهذا ما يجعل التعليل الانطباعي في أغلبه ذا مصداقية عالية، لعلو ما يستند إليه في تعليله وتحليله.

وثمّة تعليل انطباعي آخر في نص العيني السابق، ويبدو هذا التعليل في حديثه عن سبب اختيار الواو علامة للجمع في جمع المذكر. يقول [20]: " كما أن الجمع اختصّ بالواو، وإنما لم يعكس الأمر لأن الجمع، أعني جمع المذكر، أشرف الجموع والواو أيضاً أشرف الحروف، فأعطىَ الأشرفُ الأشرفَ."

فجمع المذكر السالم من وجهة نظره أشرف الجموع، والواو أشرف الحروف، فناسب اختيار ما كان شريفاً لنظيره. وهذا التعليل لا ريب مردّه إلى الذائقة الانطباعية التي ترتد إلى الذائقة الاجتماعية العامة، فقد أسس النحاة الجمع في اللغة على أسس أسفرت إلى انطباعات جعلت جمع المذكر السالم أشرف الجموع، والمتأمل في آراء النحويين يجدهم يذهبون إلى تخصيص كل نوع من أنواع الجموع "فلا يجمع على منوال جمع المذكر السالم إلا ما كان عاقلاً، ويشترك العاقل وغير العاقل في جمع المؤنث السالم، أما جمع التكسير فغير مختص بالعقلاء.[21]

ويبدو أن التشريف كان من قبل الاستخدام اللغوي، فقد دأبت العربية في الجمع على ألا تجمع جمع مذكر سالماً إلا ما كان عاقلاً، فصار لذلك اشرف الجموع لاختصاصه بالعاقل، وليس كذلك بقية الجموع.

أما عدّه الواو أشرف الحروف، فيبدو أنّ الواو وبنتها الضمة لمّا كانتا علامة مطّردة في المرفوعات، لا سيما الفاعل، صارت علامته شريفة، ولذلك اختاروا مصطلح الرفع للفاعل مثلاً، ودلالة الرفع دلالة شرف ورفعة، والفاعل متصف بهذه العلامة (الضمة أو الواو)، فصارت علامة الرفيع رفيعة، وعلامة الشريف شريفة.

ولا يخفى ما في هذا التحليل من انطباع مبني على العرف الاجتماعي للغة، وهو مؤطر بإطارها التداولي في المجتمع العربي، إذ اللغة وعاء الفكر وتصوير صادق لمفاهيم وأساليب التفكير داخل الأمة. ولهذا اختير الأشرف للاشرف من قبل المناسبة بينهما.

ج–إدخال الميم في أنتما وتحريك التاء فيها بالضم.

يقول العيني[22]:

"..وأُدخلت الميمُ في أنتما لقرب الميم من التاء في المخرج، ولأن الميم تدل على المجاورة، وكأنك جاوزت عن المفرد إلى التثنية عند قصدك إليها وإنما ضُمّت هذه التاء لأنها ضمير الفاعل، والضمير إذا كان الفاعل، يكون مضموماً، كضربْتُ، ولا يرد عليه ضربْتَ بالفتح في الواحد المخاطب – لأن المتكلم مضمومُ التاء، ولا التباس في التثنية....وقيل: إنما ضُمّت التاءُ، إتباعا للميم، لأن الميم شفوية، فجعلوا حركة التاء من جنسها، وهو الضم الشفوي، لأن الجنسية مطلوبة عندهم."

يبدو التعليل الانطباعي في تعليل العيني إدخال الميم في أنتما لقرب مخرجها من التاء، فقرب مخرج الميم للتاء لا يعد بالضرورة سببا موضوعيا لاختيار الميم؛ لأن الميم ليست الصوت الوحيد الذي يجاور التاء، فالتاء لثوية أسنانية والميم شفوية، ومعلوم أنَّ الدال والطاء من مخرج التاء أيضاً، كما أنَّ هناك أصواتا أخرى مجاورة للتاء كالأصوات بين الأسنانية، وزد على ذلك أن مجاورة الباء لا تقل عن مجاورة الميم للتاء، فالباء شفوية أيضاً.

وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن إنكار القرب المخرجي مما يحقق الإبدال بين الأصوات، ويقرب بعضها من بعض، ولكن ينبغي تعليل اختيار الصوت القريب في المخرج تعليلاً يكشف سبب اختياره من دون بقية الأصوات المشتركة معه في هذا التقارب المخرجي مع التاء.

ويبدو الانطباع في التعليل في قوله " وكأنك جاوزت عن المفرد إلى التثنية عند قصدك إليها" فالصوتان (التاء والميم) متجاوران وأنت بانتقالك من التاء إلى جاره، كأنك تنتقل من المفرد إلى المثنى من جهة التعدي إلى الآخر، وهذا التعدي إلى الآخر انتقال وتجاوز إلى ثانٍ، فكان اختيار الميم لذلك.

أما تعليله الانطباعي في حركة تاء "أنتُما" فقد قاده الانطباع إلى تعليل تسلسلي رجعي حركي، فهو يرى أنَّ تحريك التاء بالضم كان اتباعاً لحركة الميم، والميم تالية للتاء، فماثلت حركة التاء حركة الميم، وهذا وارد في العربية من حيث جريان الاتباع الرجعي في الحركات، نحو تحريك همزة الوصل اتباعاً لحركة عين الفعل كما في "اقتُل و أخرُجْ..." ولكن الذي يسترعي الانتباه انَّ الميم ليست مضممة في "أنتما"، ولكن العيني قصد ضمّاً آخر، وهو أنَّ الميم صوت شفوي، والحركة الشفوية عند القدماء هي الضم، لأنهم يرون أن الشفتين تضمّان عند النطق بالضمة أو الواو، حتى جعلوا الضمة والواو شفويين، ثم رأى العيني أنَّ انَّ الميم والضمة يشتركان بالشفوية، فكلاهما صوت شفوي، ولذلك اختاروا حركة من جنس صوت الميم ليجعلوها للتاء، وهذه الحركة ستكون الضمّة.

وعليه، فإنَّ مسار الاتباع كما يرى العيني كان على النحو الآتي:

أنتَ = التاء مجاورة للميم فاختيرت الميم بعدها في الجمع = أنتما

(أنتما= الميم صوت شفوي ، الضمة= صوت شفوي)

=اختيرت الضمة للتناسب جنس الميم والضم

=حركت التاء بالضم اتباعا لحركة من جنس الميم (لا اتباعا لحركة الميم)

ولا يخفى أثر الانطباع في هذا التحليل، وهو محط تقدير في الاجتهاد اللغوي، إذا أخذنا معطيات العلم والمعرفة في عصر العيني رحمه الله.

د–علة تعيين الألف للمتكلم في حروف المضارعة:

يقول العيني[23]:

"هذه إشارة إلى بيان علة اختصاص حروف أتينَ، كل واحد منها بشيء، أما الألف: فعينّتْ للمتكلم، لأن الألف من أقصى الحلق في المخرج وهو مبدأ المخارج، فكذلك المتكلمُ هو الذي يبدأ الكلام فكأن بينهما مناسبة. وقيلَ إنما عينتْ الألفُ واستؤثرتْ للمتكلم، توافقاً بينه وبين – أنا – أو لأن الألف في الأصل أخفّ، فستؤثّر المتكلم بالأخفّ..."

لا يخفى التعليل الانطباعي عند العيني في وصفه المتكلم بمبدأ الكلام ووصفه الألف بمبدأ المخارج. فلما كان كلاهما مبدأ يبدأ به، فناسب اختيار الألف للمتكلم. ولكن ماذا نقول في حق الواو (الضمّة الطويلة) التي هي أيضاً من وجهة نظر القدماء جوفية هوائية حرة طليقة تبدأ من أقصى الحلق أيضاً، ومثلهما الياء المدية أيضاً؟ يقول مكي بن أبي طالب القيسي[24]:

"الحروف الجوف وهن ثلاث "الألف، والواو، والياء، ...سمّاهنّ الخليل بذلك؛ لأنه نسبهنّ إلى آخر انقطاع مخرجهنّ وهو الجوف..."

فكما أنَّ الألف مبتدأ الأصوات في أقصى الحلق فكذلك الياء والواو كلها جوفية، وقد وصفت بالهوائية أيضا؛ "لأنهنَّ نسبنَ إلى الهواء، لأنَّ كلَّ واحدة منهنَّ تهوي عند اللفظ بها في الفم، فعمدة خروجها في هواء الفم...[25]"

ولكن يمكن الاستئناس بما ذهب إليه العيني إذا أخذنا بتميز الألف وتمكنها، فعلى الرغم من أنَّ الألف والواو والياء جوفية هوائية، إلا أنَّ من القدماء من يرى أنَّ الألف أمكنهنّ، يقول القيسي[26]:

"فعمدة خروجها "الألف والواو والياء (المديتين) في هواء الفم، وأصل ذلك الألف. والواو والياء ضارعتا الألف في ذلك، والألف أمكن في هواء الفم عند خروجها من والواو والياء، غذ لا يعتمد اللسان عند النطق بها على موضع من الفم.."

وهذه دقة نظر في تعيين العيني الألف مبتدأ للحروف إذا ما قيست من أخواتها الجوفية، أما عدّه المتكلم مبتدأ الكلام، فهو من وجهة نظر منطقية صحيح، إذ منشأ الكلام متكلم بالضرورة ولو كان من وجهة نظرك مخاطباً أو غائباً.

أما تعليله بخفة الألف فاستأثر المتكلم بها، وكأن المتكلم يملك حق اكتساب ما في اللغة فيتصرف بما يراه أثرة له، وهذا أيضاً من التعليل الانطباعي، إذ لا دليل يجعل من المتكلم مستأثراً بالأخف، إذ لا وجود للألف في الجمع كقولنا:"نضرب" مثلاً. والألف موجودة في تثنية الغائب والمخاطب.

ولكن يبقى التعليل بهذه العلل انطباعاً ولو لامس بعض الحقائق، وربما إحساس العيني بذلك قاده على أن يذكر علاً أخر، فكان أقرب إلى الحقيقة لما قال: " عينتْ الألفُ واستؤثرتْ للمتكلم، توافقاً بينه وبين – أنا –..."

إذ يبدو أن النون في "نضرب" دلالة المتكلمين "نحن"، وكذلك الألف في "أضرب" دلالة المتكلم "أنا" ...

هـ–علة تعيين الواو للمخاطب وقلبها تاء في حروف المضارعة:

يقول العيني[27]:

"لما عُينت الألف للمتكلِم، لكونه في مبدأ الكلام، عينت الواو للمخاطب لكونِ انتهاءِ المخاطب به، ولكون الواو من منتهى المخارج فكانت المناسبة بينهما في الانتهاء..."

إنَّ عناية العيني بمبدأ الكلام ومنتهاه كانت الدافع لتعليله الانطباعي، فهو يرى أنَّ أصل التاء من حروف المضارعة للمخاطب نحو: تضربُ، هو الواو، ثم أبدلت الواو تاءً، وسبب اختيار الواو للمخاطب من وجهة نظره أنّ المخاطب هو منتهى الكلام، فإليه يصل وعنده ينتهي بوصفه مستقبلاً للخطاب، والواو من منتهى المخارج ويقصد بذلك الشفتين، فناسب الاختيار بينهما.

والحقيقة أنَّ حركة الشفتين المستديرة عند نطق الواو سواء أكانت الواو حركة أو شبه حركة، ما هي إلا حركة مصاحبة، فالواو شبه الحركة طبقية، والواو الحركة خلفية ضيّقة وهيب حرة طليقة جوفية هوائية.[28]

وبصرف النظر عن مخرج الواو، فإنَّ أثر التعليل الانطباعي ماثل في ربط العيني بين منتهى الكلام عند المخاطب، ومنتهى المخارج عند الواو في الشفتين.

وربما يتجلى التعليل الانطباعي عند العيني في تعليله لقلب الواو تاء، خاصة إذا اجتمعت مع واوات أخرى، إذ بلغ فيه الانطباع إلى تخيل بعض السياقات الصوتية أصواتاً غير مستحسنة، ولذلك جرى الإبدال. يقول[29]:

"ثم لما عُينتْ الواو للمخاطب، قلبتْ تاءً حتى لا يجتمع الواواتُ في نحو: وَوَوَجَلَ، إذا عُطف، الأولُ واو العطف والثانية واو المضارعة والثالثة فاءُ الفعل، وذلك يفضي إلى الاستبشاع لأنه يشبه نباحَ الكلاب. والواو كثيراً تبدل من التاءِ كما في: تُراثٍ وتُجاه وتُخمة وتُكلان والأصل: ورَاثُ ووَجاهُ ووَخمة ووُكلان."

إنّ انطباع العيني لاجتماع ثلاث واوات أفضى به إلى استبشاع أشبه ما يكون بنباح الكلاب الذي لا يؤنس سماعه، فقلبت الواو بزعمه تاء. ويبدو أنه يستشعر انطباعاته في التعليل، ولذلك عزّز ما قاله بأن الإبدال يجري بين الواو والتاء كما في تراث وتجاه.."

و–علّة تعيين الياء للغائب في حروف المضارعة:

يقول العيني[30]:

"لما عُينت الواوُ للمخاطب عُينت الياءُ الغائب لأن الياء من وسط الفم والغائب أيضاً في وسط الكلام، لأنه في أثناء كلام المتكلم والمخاطب فأعطيَ الياءُ، للمناسبة بينهما.."

لم يند العيني عمّا ألفناه في تعليلاته السابقة وهو يعلل لاختيار الياء من حروف المضارعة للغائب كما في نحو : يضربُ. فهو ذو مرجعية انطباعية تراءى له فيها أنَّ المتكلم مبتدى الكلام، والمخاطب منتهاه، فلم يبق للغائب إلا أن يكون بينهما، بل الغائب في متناول المتكلم والمخاطب، وهذا يثبت توسطه، ولمّا كانت الياء من وسط الفم، فناسب اختيارها للغائب، كما ناسب اختيار الألف مبتدأ الكلام للمتكلم، والواو (المبدلة تاء) منتهى الحروف للمخاطب.

الحقيقة أنّ هذا الربط بين الموقعيتين المخرجية للحرف(الصوت)، والمقامية أو الحالية (للمتكلم والمخاطب والغائب)، هي وليدة ذائقة إحساس، ورؤية انطباعية لا تحكمها الضرورة، وبدا لنا أن العيني لم يجعل بناءه كلّه متكأً عليها، بل ساقها رديفة ومساندة لما عليه اللغة وقواعدها.

ز – علّة تعيين النون لجماعة المتكلمين في حروف المضارعة:

يقول العيني[31]:

"وأما النون فعينت للمتكلم إذا كان معه غيره لكونها علماً للمتكلمين في الماضي، لأنها أقرب الحروف شبهاً من حروف المد واللين؛ لأنها غُنّةٌ في هواءِ الخيشوم، كما أن حرف المدّ واللين مدة في الحلقِ، ولأنه لم يبقَ من حروف العلة شيء حتى يزاد منها وهي قريب منها، فزيدت لذلك."

يبدو أنّ سابقة جماعة المتكلمين في المضارع، كانت مشكلة نوعاً ما، ويبدو ذلك من خلال كثرة العلل التي ساقها العيني في سبب اختيارها. فقد رصد العيني مبتدأ الكلام ومنتهاه ووسطه، ولم يبق من الموقعية الحالية ما يمكن ذكره، ولذا جاء الطرح مختلفاً ومتعدداً، فقد ساق العيني العلل الآتية لاختيار النون لجماعة المتكلمين:

–يشترك المتكلم مع غيره (الغائب) في استخدامها.

–استخدمت الياء للغائب والألف للمتكلم والواو (التاء) للمخاطب وهي حروف فيها مدّ وإطالة فاختيار أقرب الأصوات إليهن وهو النون لما فيها من مدّ بالغنّة.

– لم يبق من حروف المد واللين ما يستخدم، فلجأوا إلى أشبه الحروف بهنّ وأقربها.

يلحظ أنّ ربط الموقعية المخرجية بالموقعية الحالية لم يجر في تعليله لسابقة جماعة المتكلمين في المضارع، لما ذكرناه من نفاد الموقعية الحالية بما رصده للياء والواو والألف. ولذلك لجأ العيني إلى تعليل انطباعي قارب فيه بين

النون وبقية حروف المضارعة: (رصده الياء والواو والألف)، وصار يتحسس أوجه التقارب بينهما، إذ يجمع بينهما ما نلحظه من مدّ.

يقول العيني في موضع آخر[32]: " والنون أيضاً فيها غُنّة وتمتد في الخيَشوم امتداد الألف في الحلق..."

وبغض الطرف عن مدى صحة الاختيار الذي ذكره العيني، إلا أن العلاقة بين حروف المد واللين والنون صحيحة، ولذلك كان صوت النون من أصوات مدّ النغم المستحسنة كما هو حال أصوات المدّ. يقول الفارابي[33]:

"والحروف الممتدة بامتداد النغم منها ما يبشّع مسموع النّغم إذا اقترنت بها...ومنها ما لا يبشّعه، وهي هذه الثلاثة: اللام والميم والنون..."

ويقول السيوطي[34]:

"كثر في القرآن الكريم ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته، وجود التمكن من التطريب بذلك. كما قال سيبويه أنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ... وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع".

وهذا ما أكدّه علماء اللغة المحدثون، يقول إبراهيم أنيس[35]:

"وليست الغنّة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقي فيها...هذا إلى أنَّ الغنّة مع النون المشدّدة تهب نغمة موسيقية محببة إلى الأذن العربية..." ولذلك تجد النون ذات حضور قوي في فواصل القرآن الكريم كما تجد حروف المدّ كذلك.

ح –علاقة الحركات الطويلة بالحركات القصيرة:

يقول العيني[36]:

"فإن قيل: باي شيء عرف أن حروف المد واللين أكثر دوراناً في كلامهم؟ قيل له: ما وُجد كلمة خالية عنها أو عن بعضها، فعلم إنها أكثر دوراناً، والمراد، بالبعض هو الحركات الثلاث، وذلك لأن الألف مركبةٌ من فتحات ثلاث، والواو من ضماتٍ ثلاثٍ، والياء من كسرات ثلاث."

نلحظ التعليل الانطباعي في قياسه تركيب الحركات الطويلة ومقدارها، فقد رأى العيني أنّ الحركات الطويلة هي ثلاثة أضعاف القصيرة، وهذا ما لم يقدره أحد من اللغويين، إذ جرى العرف عندهم أن الطويلة ضعف القصيرة، والضعف هو زيادة مثلين لا ثلاثة. ولكن لعل ذائقة العيني ونظرته الشخصية أفضيا به تقديرها بثلاثة أضعاف.

وربما خالف هذا الذي ذهب إليه ما يقوله اللسانيون من أن اجتماع حركتين قصيرتين ينتج حركة طويلة، ففتحة قصيرة وفتحة قصيرة تنتجا فتحة طويلة (الألف)، وكذلك ضمة قصيرة وضمة قصيرة تنتج واواً مدّية هي الضمة الطويلة، وكسرة قصيرة مع كسرة قصيرة ينتج كسرة طويلة هي الياء المدّية.

الاستنتاجات والتوصيات:

خلص البحث إلى جملة من النتائج، لعلّ أهمها :

1. "التعليل الانطباعي" هو من لدن وحدة الشخصية الإنسانية، إذ لا يمكن أن يتجرد الإنسان من ذوقه وانطباعاته في بحث مسألة من مسائل العلم، وإذا كان علم الصرف من العلوم القائمة على المنطق المجرد والقواعد الموضوعية المحكومة بأقيسة وموازيين، فإنَّ التعليل فيه لا يخلو من بث اللغوي بعض انطباعاته الذوقية في معالجة المسألة الصرفية. وهو ما نحاول تسويته وبيانه.

2. التعليل الانطباعي في الدرّس اللغوي لا ينشأ من فراغ، وليس وليد اعتباط، وإنما هو ذو مرجعية ، فقد يعتمد التعليل الانطباعي على ركيزة من ركائز الفكر الديني، أو أساس من أسس التفكير المنطقي، وبصرف النظر عن صحة هذا البناء، فإنَّ العلاقة بين العلة والمعلل لا تنشأ من فراغ، بل يؤسس لها من مرجعية موثوقة ثم يفترض البناء عليها. وعليه فإنَّ المرجعية التي يؤسس التعليل الانطباعي عليها لا يعتورها شك أو بطلان، فهي غالباً حقيقة ثابتة، وهذا ما يجعل التعليل الانطباعي في أغلبه موثوقاً به وذا مصداقية عالية.

3. التعليل الانطباعي ليس من المآخذ التي تسجّل على العالم، فقد سبق القول إنَّ هذا التعليل يأتي ثانوياً لا رئيساً، وهو من باب تعزيز الفكرة والحكم، فهو رديف الحجة والدليل، بل هو من الأهمية بمكان يكشف ما يختلج في النفس من انطباعات تتقاطع مع الأدلة العلمية والشواهد اللغوية.

4. التعليل الانطباعي جزء من النظرة التكاملية في فهم الآراء العلمية، وهذا مردّه إلى النظرة الاجتماعية والسياق الاجتماعي للغة، سواء أكانت لغة خطاب تداولي أو لغة نص علمي، لأنَّ كليهما لا ينفك يحقق مفهوم التواصل الذي من أجله كانت اللغة.

5. التحليل الانطباعي يُبْنَي على العرف الاجتماعي للغة، وهو مؤطر بإطارها التداولي في المجتمع العربي، إذ اللغة وعاء الفكر وتصوير صادق لمفاهيم وأساليب التفكير .

6. رصد البحث جملة من السياقات اللغوية كان التعليل الانطباعي وسيلة من وسائل الإبداع أو الاختيار عند العيني. وظهرت تعليلاته الانطباعية في سياقات متنوعة، منها المصطلحات الصرفية ، ومسائل تصريفيّة متنوعة .

7. كانت عناية العيني بمبدأ الكلام ومنتهاه الدافع لتعليله الانطباعي، فهو يرى أنَّ أصل التاء من حروف المضارعة للمخاطب نحو: تضربُ، هو الواو، ثم أبدلت الواو تاءً، وسبب اختيار الواو للمخاطب من وجهة نظره أنّ المخاطب هو منتهى الكلام، فإليه يصل وعنده ينتهي بوصفه مستقبلاً للخطاب، والواو من منتهى المخارج ويقصد بذلك الشفتين، فناسب الاختيار بينهما.

الهوامش:

1. ينظر على سبيل المثال لا الحصر: ، الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق تح مازن المبارك، الإيضاح في علل النحو، دار النفائس، بيروت، ط4/1982، وأبو الحسن ابن الوراق محمد بن عبد الله، ت 381هـ علل النحو، تح محمود درويش، بيت الحكمة، بغداد 2002، وعبد القاهر بن عبد الرحمن ت 471هـ المفتاح في التصريف (علل التصريف)، تح محسن الهذلي، الفيصلية، مكة المكرمة، 2003 والعكبري "اللباب في علل البناء والإعراب"، تح غازي طليمات، دار الفكر، بيروت/2001 وابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني ت 392هـ، الخصائص، تح محمد علي النّجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990 ج1/238-252 والأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، ت 577هـ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تح محمد محيي الدين عبد

الحميد، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت/1987م الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، ت 370هـ، علل القراءات، تح نوال بنت إبراهيم الحلوة، ط1/1991م،

2. هذا ما رصده محمود محمد نصّار محقق كتاب "علل النحو" لابن الوراق انظر المقدمة ص 178

3. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق، ت 337هـ، الإيضاح في علل النحو، تح مازن المبارك، دار النفائس،ط6/1996م ص65–66

4. انظر: ابن مضاء القرطبي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي ت 592هـ، الردّ على النحاة، تح شوقي ضيف، دار المعارف)

5. ينظر على سبيل المثال لا الحصر: ، الزجاجي(أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق تح مازن المبارك، الإيضاح في علل النحو، دار النفائس، بيروت، ط 4/1982)، وأبو الحسن ابن الوراق محمد بن عبد الله، ت 381هـ علل النحو، تح محمود درويش، بيت الحكمة، بغداد 2002، وعبد القاهر بن عبد الرحمن ت 471هـ المفتاح في التصريف (علل التصريف)، تح محسن الهذلي، الفيصيلية، مكة المكرمة، 2003 والعكبري "اللباب في علل البناء والإعراب"، تح غازي طليمات، دار الفكر، بيروت/ 2001 وابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني ت 392هـ، الخصائص، تح محمد علي النّجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990 ج 1/238–252 والأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، ت 577هـ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت/1987م

6. الشريف الجرجاني، علي بن محمد الجرجاني، ت 814هـ، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان/1995 ص154–155

7. الكفوي، أبو أيوب بن موسىالحسيني 1094هـ، الكليات، وضع فهارسه: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1/1992م ص 620–621

8. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911هـ، الاقتراح في علم أصول النحو، تقديم أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس ط1/1988 ص 70

9. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت911هـ، الاقتراح في علم أصول النحو ص 71

10. المصدر نفسه ص 82

11. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح المراح في التصريف ص 19–20

12. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح المراح في التصريف 39

13. المصدر نفسه ص39

14. ابن منظور، 711هـ، لسان العرب، باب (د ع م) ج4/358

15. الشريف الجرجاني، 816هـ، التعريفات، ص 232

16. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح المراح في التصريف ص 29

17. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح المراح في التصريف ص38–39

18. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح المراح في التصريف ص 49

19. العيني، شرح المراح ص 50–51

20. العيني، شرح المراح ص 50–51

21. انظر: الأزهري، خالد، ت 905هـ ، شرح التصريح على التوضيح، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1/2000م ج2/519

22. العيني، شرح المراح ص 59 وقد ذكر محقق كتاب شرح المراح لفظ "المجاورة" بالراء المهملة، والصحيح أنّ اللفظ هو "المجاوزة" بالزاي المعجمة، وذلك لأن العيني في ص 66 من كتابه أعاد ذكر النص وقد أثبته المحقق بالزاي المعجمة، ويعضد ذلك أن العيني يقول ص 59 بعد هذا اللفظ؛ وكأنك جاوزت عن المفرد إلى التثنية، ويقول ص 66 "فكأنه جاوز عن الواحد إلى الاثنين...وقد ذكرت"المجاوزة" بالزاي في ص66 صراحة"

23. العيني، شرح المراح ص 81

24. القيسي، مكي بن أبي طالب القيسي ت 437هـ، الرعاية، تح أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، ط3/1996 ص142

25. القيسي، مكي بن أبي طالب القيسي ت 437هـ، الرعاية، ص126

26. المصدر نفسه ص 126–127

27. العيني، شرح المراح ص 82

28. انظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة لأنجلو مصرية، 1995 ص 42 وانظر: كمال بشر، الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، 1987 ص 153–154 ويجدر التنويه إلى أنَّ إبدال الواو تاء الذي قال به القدماء، لا يوافقهم به المحدثون وليس هذا محل بيانه.

29. العيني، شرح المراح، ص 82

30. المصدر نفسه ص 83

31. العيني، شرح المراح ص 83

32. العيني، شرح المراح، ص93

33. الفارابي، الموسيقى الكبير، ج2/1072–1073

34. السيوطي، أبو بكر محمد بن الكمال، ت 911هـ/980م الإتقان في علوم القرآن، ضبطه وصححه محمد مسلم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت ط2 / 2007. ص 466

35. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 71–73

36. العيني، شرح المراح ص 81

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس، *الأصوات اللغوية*، مكتبة لأنجلو مصرية، 1995
2. ابن الوراق أبو الحسن محمد بن عبد الله، *ت 381هـ علل النحو*، تح محمود درويش، بيت الحكمة، بغداد 2002
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني ت 392هـ، *الخصائص*، تح محمد علي النّجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990 ج1/238–2
4. ابن مضاء القرطبي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي ت 592هـ، *الردّ على النحاة*، تح شوقي ضيف، دار المعارف)

5. ابن منظور، 711هـ، *لسان العرب*، دار إحياء التراث العربي، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبيدي. بيروت ط/3

6. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، ت 370هـ، علل القراءات، تح نوال بنت إبراهيم الحلوة، ط1/1991م،

7. الأزهري، خالد، ت 905هـ ، *شرح التصريح على التوضيح* ، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1/2000م ج2/519

8. الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، ت 577هـ، *الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين*، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت/1987م

9. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق تح مازن المبارك، *الإيضاح في علل النحو* ، دار النفائس، بيروت، ط4/1982،

10. السيوطي، أبو بكر محمد بن الكمال، *ت 911هـ/980م الإتقان في علوم القرآن* ، ضبطه وصححه محمد مسلم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت ط2 / 2007. ص 466

11. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911هـ، *الاقتراح في علم أصول النحو* ، تقديم أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس ط1/1988 ص 70

12. الشريف الجرجاني، علي بن محمد الجرجاني، ت 814هـ، *التعريفات*، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان/1995 ص154–155

13. عبد القاهر بن عبد الرحمن ت 471هـ *المفتاح في التصريف (علل التصريف)*، تح محسن الهذلي، الفيصلية، مكة المكرمة، 2003

14. العكبري *"اللباب في علل البناء والإعراب"*، تح غازي طليمات، دار الفكر، بيروت/2001

15. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، *شرح المراح في التصريف* ص 19–20

16. الفارابي، *الموسيقى الكبير*، ج2/1072–1073

17. القيسي، مكي بن أبي طالب القيسي ت 437هـ، *الرعاية*، تح أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، ط3/1996 ص142

18. الكفوي، أبو أيوب بن موسى الحسيني 1094هـ، *الكليات*، وضع فهارسه: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1/1992م ص 620–621

19. كمال بشر، *الأصوات العربية*، مكتبة الشباب، القاهرة، 1987